عماد أمير

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الموسم الثقافي

مجموعة المحاضرات العامة التى ألقيت بالجمعية

١٩٧٦ - ١٩٧٧

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

القاهرة ١٩٧٨

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



مجموعة المحاضرات العامة التى ألقيت بالجمعية

١٩٧٦ - ١٩٧٧

القاهرة ١٩٧٨

جان دارك

[رؤية من خلال الوثائق](*)

للدكتور اسحق عبيد
كلية الآداب — جامعة عين شمس

" Depose celui qui parle que . . toux ceux qui la regadaient en grande multitude pleuraient a chaudes larmes . . même le Cardinal d'Angleterre et plusieurs autres Anglais .. Dit en outre qu' elle, etant dans flamme, jamais ne cessa de confesser jusqu'à la fin, à haute voix, le Saint nom de Dieu".

(Ysambart de la Pierre)

جان دارك فتاة ريفية من منطقة الفوج فى اللورين ، ولدت سنة ١٤١٢ وأحرقت بتهمة السحر والهرطقة على يد محاكم التفتيش الكنسية سنة ١٤٣١ ، وأعيد النظر فى قضيتها وبرئت سنة ١٤٥٦ ، وأنعم عليها بلقب « الوقورة » (Venerable) سنة ١٩٠٤ ، ثم طوبت سنة ١٩٠٨ ، ورفعت إلى مصاف القديسين سنة ١٩٢٠ .

ويرى فيها بعض الدارسين أول شهداء الإصلاح الدينى والبروتستانتية ، وداعية مبكرة لفكرة القومية ، ومبشرة بالعهد النابوليونى ، ورائدة حركة تحرير المرأة من مخالب الرجعية وأغلال الأنوثة ، وهى أيضاً ملهمة للملكة كرستينا الـ يدية والملكة كتالينا وغيرهن من المبشرات بمساواة المرأة بالرجل فى مجتمع الغرب الأوربى(١) .

(*) ضرة ألقيت مساء الاثنين ٢٧/١٢/١٩٧٦ م

لقد فاقت شهرتها شهرة البابا والامبراطور فى العصور الوسطى ، وهى بعد صبية فى عمر المراهقة ، وهى التى توجت شارلس السابع ، الملك الفرنسى المتردد ، وألهمته بالثبات وبالإحساس بقيمة الذات ، وهى التى وجهت الأمر والنهى إلى ملوك انجلترا ، وحيرت الجنرالات والقادة من برغنديين وانجليز وفرنسيس على حد سواء . وهى صاحبة رأى ثاقب فى حصار المدائن وفى رفع الحصار عنها لتحرير الأهلين المحاصرين . ولو أنه قدر لها أن تكون وريثة للسلطة ، أميرة أو ملكة ، لاحتار فى فهم عبقريتها ساسة العصر وكتابه ، مثلما احتار فى القديم كاسيوس أمام عبقرية قيصر .

لقد قارن البعض جان دارك فى محنتها بتلك المحنة التى خبرها سقراط مع جلاديه ، غير أن سقراط كان فى خاتمة المطاف فى السبعين من العمر ، أما جان دارك فإنها لم تكن تناهز السبعة عشر ربيعاً . لقد كانت عملاقة وقد وقعت فى كمين نصبه لها جلادو العصور الوسطى من رجال محاكم التفتيش الكنسية .

وعلى من يأخذ على عاتقه عبء الكتابة عن جان دارك أن يتعفف عن المعاداة الغشيمة لجنس حواء ، وعليه أيضاً أن يترفق فى النهج العقلانى فلا يمحو بجرة قلم كل ما قد تواتر فى سجلات التاريخ من مادة عن المعجزات والظواهر فوق العادية ، ويحسن به أن يتحرر من تحاملات العصر الحديث على عصر نعت طويلا باسم « عصر الظلام » . ولا تحتاج سيرة جان دارك إلى شطحات الرومانطيقيين الذين يحاولون أن يرسموا لها صورة تحاكى صورة الجيوكندا .

كانت جان دارك فتاة أمية « لا تعرف الألف من الباء » على حد تعبيرها أثناء التحقيق معها ، فلقد كان والدها فلاحاً بسيطاً . والأمية أمر عادى فى زمان العصور الوسطى . بل إن هنالك عديداً من الأميرات من بنات القصور

والقلاع على شاكلة جان . كما وأن الملكة مارى أنطوانيت — فى أواخر القرن الثامن عشر — لم تكن لتستطيع هجاء حروف اسمها صواباً . غير أن أمية جان دارك لا تعنى جهلها : فلقد كانت على دراية بما كان يجرى فى الحرب الضروس — حرب المائة عام — بين وطنها فرنسا وبين العدو الانجليزى وحليفه دوق برغنديا ، والتى وقعت أحداثها ما بين عامى ١٣٣٧ و ١٤٥٠م .

كان أول من آمن برسالة جان دارك والرؤى التى « ظهرت » لها والأصوات التى زعمت بأنها قد إختارتها لتحرير فرنسا روبرت قائد بلدة فوكولير ، وذلك بعد أن تنبأت له بهزيمة ولى العرش الفرنسى فى واقعة هرنج ، قبل أن ترد أية أنباء عن تلك المعركة . لقد قيل عن رؤى جان دارك وعن أحلامها أنها علامات على إصابتها بالهلوسة والجنون ، كما وصمت أيضاً بأنها ساحرة . ولكن جان دارك لم تكن كذلك ، بل يمكن القول إن تلك الرؤى والأصوات لم تكن أكثر من تفكير ذهنى مسموع ، وترجمة منفعلة لخيال متقد إيماناً بقضية الوطن الممزق .

ومنذ نعومة أظفارها كانت عذراء اللورين شديدة الرغبة فى الهروب من قريتها ، متنكرة فى زى الرجال لتصبح جندياً ، حتى إن والدها قد هدد بإغراقها فى نهر الميز إن هى كررت ذلك المطلب مرة أخرى على مسمع منه . لقد كانت جان دارك فتاة من ذلك الصنف الراغب فى تقليد الرجال ، ولعل ذلك كان طبعها الفطرى ، وربما كانت واحدة من بنات حواء الكارهات لجنس النساء (Unwomanly woman) ، ومنهن كثيرات . وقد اتهمها البعض بأنها كانت فريسة لاستحواذات قهرية انتحارية ، ويدللون على ذلك بأنها ألقت بنفسها من سجنها فى قلعة بورفوار، من ارتفاع يربو على الستين قدماً ولكن الدافع وراء ذلك التهور كان تحرقها للفرار من القيد من أجل الكفاح

مع شعبها فى إنقاذ بلدة كومبين ، بعد أن علمت بأن العدو قد استولى على تلك البلدة من جديد .

إن الصورة التى رسمها شكسبير لجان دارك فى ثلاثيته عن هنرى السادس صورة لا تليق بأمير الشعر الانجليزى ، فنها تحاملات بريطانية خشنة تتضح من السطور الآتية :

The Regent conquers and the Frenchmen fly.
Now help,ye charming spells and periapts;
And ye choice spirits that admonish me,
And give me signs of future accidents.

فهى عند شكسبير مجرد « ساحرة مشعوذة » ترجم بالغيب وتعتمد على فعل الشياطين . وعندما تقع جان دارك فى أيدى الانجليز أسيرة يتوعدها يورك بالآتى :

Damsel of France, I think I have you fast
Unchain your spirits now with spelling charms;
Anp try if they can give you liberty.
A goodly prize, fit for the devil's grace !
See how the ugly witch doth bend her bows
As if, with Circe, she would change my shape !..
Curse, miscreant, when thou comest to the stake.

وبعد قرنين من عصر شكسبير جاء الشاعر شيللر فجعل من جان دارك أيضاً مشعوذة وساحرة ، وذلك فى روايته بعنـــوان :
" Die Jungfrau von Orleans " . وسخر منهـــا فولتير مثلما سخر من كل شىء .

غير أن برنارد شــو قد عالج موضــوع جان دارك بروح إنسانية تتسم بالإنصاف ، فهي عنده « قديسة ليست من هذا العالم الظالم » :

" The world is too wicked for me. If the goddams and the Burgundians do not make an end of me, the French will. . Yes, they told me you were fools, and that I was not to listen to your fine words nor trust your charity . . It is not the bread and water I fear : Bread has no sorrow for me, and water no affliction".

وفى التاريخ تخبطت سيرة جان دارك بين الأسطورة والواقع ، واختلفت فيها الآراء والتفسيرات ، حتى بعد أن حقق العالم كويشيرا (Quicberat) كل الوثائق المتصلة بقضيتها .

ونحن فى هذا البحث سوف نقوم برحلة الآلام مع الفتاة جان دارك من البداية حتى النهاية ، ودليلنا فى هذه الرحلة هى الوثائق التاريخية .

ولنبدأ القصة من أولها :

ألحق الانجليز بالفرنسيين هزائم متلاحقة فى بداية حرب المائة عام فى مواقع كريسى وبواتييه وأجنكورت فى أعوام ١٣٤٦ ، ١٣٥٦ ، ١٤١٥ على التوالى . وكانت أجنكورت أنكى هذه الهزائم جميعاً : فقد هلك فيها سبعة آلاف من خيرة أبناء فرنسا ، ووقع ألف وخمسمائة آخرون فى الأسر ، وكان على رأس الأسرى أمير من البيت المالك هو شارلس دوق أورليانز . وفى سنة ١٤١٨ دخل الانجليز باريس ، بمؤازرة يوحنا « المتهور » دوق برغنديا الذى كان عدواً لدوداً للملك الفرنسى . وتنتاب الملك الفرنسى شارلس السادس نوبة من نوبات جنونه الدورية لما حل بالتاج من عار ، بينما تشير الأصابع إلى زوجه إيزابو البافارية على أنها صاحبة يد فى التآمر على زوجها وباريس جميعاً .

ويدخل الملك الانجليزى هنرى الخامس إلى فرنسا مدعياً بأنه مبعوث العناية الإلهية لتطهير فرنسا من الرذائل التى فاحت رائحتها فى القصر الملكى على

وجه الخصوص . كذلك قيل إن هنرى الخامس عند زيارته لأسيره شارلس دوق أورليانز فى برج لندن حدثه بأن « السماء قد حكمت بالعقاب والمذلة على الفرنسيين » .

والواقع أن فرنسا فى ظل حكم شارلس السادس قد قاست الكثير ، فلقد كان الملك فريسة لنوبات جنونية دورية ، وكان كثير الشجار مع أقاربه وأفصاله، فتمزقت وحدة البلاد . كذلك كانت زوجه إيزابو ملكة رعناء غير وفية ، ولم يبق من أبنائها الستة إلا واحد هو شارلس السابع ، الذى حامت حوله شبهات بعدم الشرعية .

ولد شارلس السابع سنة ١٤٠٣ فى وقت كانت فيه فرنسا فى حال يرثى لها : فأرضها عرضة لنهب الإنجليز ، وأهلها يسقطون قتلى بسيوف البرغنديين ، ثم يجتاحها الوباء المعروف « بالموت الأسود » فيحطم ما تبقى من معنويات لدى الأهلين . وفى ٢١ مايو ١٤٢٠ أملى الإنجليز على فرنسا معاهدة مهينة عند بلدة تروى (Troyes) نصت على إعلان عدم شرعية ولى العهد شارلس السابع فى حمل التاج ، الذى آل بذلك إلى هنرى الخامس ملك انجلترا .

وفى الثانى من يونيو لنفس العام تزوج هنرى الخامس من ابنة الملكة إيزابو وشارلس السادس ليضفى على نفسه شرعية حمل التاج الفرنسى المرتقب. وكانت العروس هى الأميرة كاترين ، التى أشاد بجمالها شكسبير على أنها :

" La plus belle Katherine du monde " (٢)

وفى نفس الوقت زفت شقيقتها ميشيل إلى فيليب الطيب دوق برغنديا .

وبعد عامين ، أى فى ٣١ أغسطس ١٤٢٢ ، توفى هنرى الخامس وهو فى عنفوان الشباب وقمة المجد، وبعدها بأسابيع قلائل توفى الملك الفرنسى شارلس السادس الذى حكم مدة تربو على الأربعين عاماً (١٣٨٠ - ١٤٢٢) ، وجاس

على عرش انجلترا طفل عمره عشرة شهور هو هنري السادس ، تحت وصاية يوحنا دوق بدفورد .

وقـــد نجح الوصى على العرش الإنجليزى فى أن يثبت أقدام انجلترا فى نورمانديا ، وفى أن يستولى على باريس مرة أخرى بمعونة فيليب دوق برغنديا. وبذلك لم يبق لولى العهد المطالب بعرش باريس من نفوذ فى فرنسا إلا منطقة جنوبى اللوار، حتى صار يلقب لقباً ساخراً هو «ملك بورج» تدليلا على ضآلة قدره ونفوذه .

غير أن بعض المدن الفرنسية بدأت فى الكفاح ضد الإنجليز والبرغنديين، ومن بين هذه المدن مونت سان ميشيل ، تورناى ، فوكولير ، ثم أورليانز التى كانت تشرف على أهم قنطرات نهر اللوار .

وفى ١٢ أكتوبر ١٤٢٨ زحفت حملة إنجليزية بقيادة توماس مونتاجو ، إيرل سالزبورى، وضربت حصاراً حول مدينة أورليانز ، بهدف تطويق شارلس السابع والإيقاع به .

وبينما كان الإنجليز يشددون من قبضة حصارهم على مدينة أورليانز ، كانت مشاعر الفرنسيين ممزقة بين فريق يؤيد الإنجليز وحليفهم دوق برغنديا ، وبين فريق آخر يمثل المقاومة الوطنية . وعرف الفريق الأخير باسم « الأرماناك » (Armagnacs) نسبة إلى برنارد ده أرماناك ، حمو شارلس دوق أورليانز، الذى حمل لواء المقاومة الفرنسية ضد الإنجليز والبرغنديين . وهذه الكنية تفصح عن ولاء الجنوب الفرنسى لشارلس السابع المطالب بالتاج .

ساءت الأحوال ويئس أهالى أورليانز بعد حصار طويل لمدينتهم ، وحلت المجاعة بعد نفاد المؤن ، وأرسل الأهلون مندوبين عنهم إلى الدوق البرغندى يتوسلون إليه كى يتوسط لهم لدى حلفائه الإنجليز لإنقاذ مدينتهم من خراب

محقق . وفجأة طارت الأنباء فى كل ربوع فرنسا بأن أورليانز قد صمدت فردت المعتدين على أعقابهم .

وبالفعل اضطر الإنجليز فى ٨ مايو ١٤٢٩ إلى رفع الحصار عن مدينة أورليانز ! فكيف كان ذلك ؟

كان الجميع يرددون أن النصر قد تحقق على يد « فتاة اللورين » حاملة العلم ألا وهى جان دارك :

كان أهالى قريتى دومريمى وجرى على حدود دوقية بار يطلقون عليها اسم جانيت ، وعندما ذاع اسمها عرفت بجان . أما والدها فهو جاك دارك ، وأمها فهى ايزابل رومى . وخلافاً للرأى السائد عن جهل والديها ، نعلم من جانيت أن والدتها قد علمتها دروسها الأولى من قبيل « أبانا الذى » (Pater noster) و « نعظمك يامريم » (Ave Maria) ثم قانون الإيمان (Credo) . ولم تكن جانيت راعية للأغنام بالمعنى التام بقـــدر ما كانت تتقن حرفة الغزل ونسيج الكتان . وأما عن مظهرها فقد كانت « قوية البنية ، نحاسية الملامح ، شديدة المراس ، متواضعة المظهر ، وصاحبة صوت يفيض أنوثة »(٣) .

كان أهالى قرية دومريمى يمقتون جيرانهم البرغنديين بسبب تحالف الدوق البرغندى مع الإنجليز أعداء البلاد . وتحدثنا جان دارك فى هذا الصدد بأنه كان يوجد فى بلدتها برغندى ، كانت تود من كل قلبها لو أن واحداً أقدم على قطع رأسه . وتحدثنا جان دارك عن تقاليد وعقائد أهل اللوريين ، فتقدم لنا بذلك صورة عن مفاهيم الناس فى العصور الوسطى المتأخرة ، فمنها نعلم أنه كانت توجد على مقربة من بلدتها دومريمى شجرة تعرف باسم « شجرات السيدات » وأخرى باسم « شجرة الحور » ، ويجاورهما ينبوع من المياه .

كانت الشجرة الأكبر تكنى باسم « هاو » (Hau) وكانت ملكا لواحد من

الفرسان يدعى بييردى بورلمونت . وكانت فتيات القـــرية يتجمعن حول الأشجار ليصنعن الأكاليل من الأغصان ، وكانت جان تشارك الفتيات فى لهوهن هذا . وعندما بلغت جان أدراج المراهقة كفت عن الرقص مع الفتيات ، وإن كانت لم تنقطع عن المشاركة فى الغناء . وهذا يؤكد أن جان دارك كانت فتاة سوية فى كل سلوكها كفتاة ، فلم تختلف عن صويحباتها المراهقات فى سنها فى شىء ، كما أننا نعلم منها أيضاً أنها قد مرت بقصة حب ، فقد وعدها شاب من بلدة تول بالزواج منها ، ولكنهما اختلفا لسبب أو لآخر ، فأقام الشاب ضدها دعوى فى محكمة تول . ويقال أن جان قد تنصلت من وعدها لأن « الأصوات العلوية نصحتها بأن تحافظ على عذراويتها » ، وكانت وقتئذ فى الثالثة عشرة من عمرها .

لقد قيل عن جان دارك أنها من نسل ملكى ، وأشارت إليها بعض الروايات على أنها « لقيطة أورليانز » ، وثمرة علاقة غير مشروعة بين الملكة الفرنسية إيزابو وبين لويس دوق أورليانز ، شقيق الملك . وتمضى الرواية فتقول بأنه بعد مولد جان ، قامت الملكة إيزابو بإخفائها فى قرية دومريمى مع أسرة جاك دارك . وقد وجدت هذه الأقاويل قبولا وتشجيعاً عند بييركاز حاكم برجراك ، فكتب يؤيد هذه الرواية فى عامى ٨٠٥ / و ١٨١٩ . ولكن غالبية المؤرخين المحدثين قد أسقطوا هذه الرواية من حساباتهم . ويقلل من قدر هذه النظرية حقيقة أن الأبناء غير الشرعيين فى العصـــور الوسطى كانوا يلقون الاعتراف بهم دون شعور بالعار . والأمثلة على ذلك كثيرة فى زمان جان دارك نفسها : فقد كان دينوا القائد المرموق معروفاً باسم « لقيط أورليانز » ، وكان يوقع جميع مكاتباته بهذا اللقب دون أن يشعر بأى حرج ، بل إنه كان يفاخر بأنه ابن غير شرعى للدوق لويس من أورليانز ويولاندة دى انجين . وكان لفيليب الطيب دوق بزغنديا ستة عشرة إبناً من اللقطاء ، وكان واحد منهم هو انطوان شهيراً باسم « اللقيط الأكبر » (Le Grand Batard) . كما كان إثنان

من كبار كتاب الحوليات فى عصر جان دارك لقيطين أيضاً ، وهما انجراند ومونسترليه .

تقول جان دارك أنها عندما كانت فى الثالثة عشرة من عمرها سمعت صوتاً ملائكياً ، هو صوت سان ميشيل على وجه تحديدها ، وقت الظهيرة فى حديقة بيت أبويها . وطلب منها صاحب الصوت مداومة الصلاة والحفاظ على بتوليتها ، كما أمرها بالرحيل إلى فرنسا دون علم والديها لتساهم فى رفع الحصار عن بلدة أورليانز . كذلك نصحها صاحب الصوت بأن تمضى لمقابلة روبرت دى بودريكورت حامى قلعة فوكولير ليزودها بالرجال .

غادرت جان دارك قريتها دومريمى فى صحبة عمها قبالة فوكولير . وبعد تردد وافق روبرت دى بودريكورت على أن يزودها بنفر من الرجال فى رحلتها إلى بلدة شينون ، مقر ولى العهد الفرنسى شارلس السابع المطالب بتاج فرنسا . وذاعت شهرة « عذراء اللورين » فى كل أرجاء فرنسا ، وأخذ الناس ينسبون إليها المقدرة على إتيان المعجزات (٤) .

ووصلت أخبارها إلى شارلس دوق اللورين ، الذى كان يعانى من مرض عضال ، فطلب إحضار الفتاة إلى قلعته . ويروى أن جان دارك قد عنفت الدوق اللوريني تعنيفاً قاسياً ، ونسبت سوء حالته الصحية إلى سوء سلوكه وإلى طرده زوجه الوفية مارجريت البافارية . والواقع أن الدوق كان على علاقة آثمة بفتاة لعوب تدعى أليسون دوماى وأنجب منها لقطاء خمسة .

عادت جان دارك إلى فوكولير مرة أخرى ، حيث زودها روبرت بنفر من الفرسان وبعدد من الخيول . وارتدت جان منذ تلك اللحظة ملبس الرجال المحاربين وأمسكت بيدها سيفاً ، وصار يرافقها فارس مخاص هو جان دى متز ، ومحارب آخر هو برتراندى بولينى إلى جانب أربعة من الخدم (٥) . وصل

الموكب إلى بلدة شينون ونزلت جان فى أحد فنادق البلدة ، ثم قصدت بعد قليل إلى القلعة ، وأذن لها بمقابلة ولى العرش وقد تعرفت جان على ولى العرش على التو من بين ثلاثمائة من الحضور . وتحدثنا الفتاة بأن الحجرة التى كان يجلس فيها شارلس كانت مضاءة بخمسين من المشاعل إلى جانب «النور الروحانى» الذى تعرفه جان دارك وحدها . وتعرفت الفتاة على ولى العهد ووجهت إليه الكلمات التالية : « إنى أقول لك ، بتكليف من السماء ، بأنك الوريث الحق لفرنسا وبأنك الابن الشرعى الملك »[٦]. وبعد حديث منفرد مع الفتاة ، كلف شارلس حاجب بلاطه وليم بلاييه بأن يستضيف الفتاة فى داره مع زوجه الوقورة لبعض الوقت. ويروى جان باسكيريل ، من رهبان سان أو جستان ، وهو الذى كان يتلقى اعترافات جان ، أن كونت فندوم هو الذى اصطحب الفتاة إلى مقر ولى العهد. ولما أن سألها شارلس عن اسمها ذكرته له فى أدب جم ، ثم بشرته بأنه سوف يتوج ملكاً على فرنسا فى مدينة ريمز . كذلك أكدت له شرعية نسبه الملكى . ويروى أيضاً أن شارلس قد عبر للحاضرين عن ثقته فى الفتـاة لأنها أبلغته أسراراً خصوصية لا يعلمها أحد سواه .

بعد هذا قرر شارلس السابع إرسال الفتاة إلى مدينة بواتييه ليختبرها أساتذة الجامعة التى تأسست سنة ١٤٣٢ عندما نزح إليها أساتذة جامعة باريس بعد سقوط العاصمة فى أيدى الإنجليز . ونزلت جان دارك فى دار جان راباتو ، مندوب الملك فى البرلمان الفرنسى . وكان من بين الأساتذة المرموقين فى بواتييه بيير دى فرساى ، جان لامبرت ، وليم أميرى ، بيير سيجوين ، متيو مسيواج ، ووليم لومير . وقام هؤلاء الأساتذة الضالعون فى الفلسفة والقانون واللاهوت باختبار الفتاة لمدة ثلاثة أسابيع كاملة بغية رفع تقرير كامل عما يصلون إليه من نتائج بخصوص شخصية الفتاة : "ce qu'il nous semblait d' elle"

كانت إجابات جان دارك لهذه الهيئة العلمية العليا من اللاهوتيين والقانونيين

والفلاسفة تنم عن شجاعة أدبية فائقة وثقة فى النفس وفى السماء وفى قضية الوطن . ومن بين الأسئلة التى وجهها إليها وليم اميرى سؤاله : « لقد قلت إن الله قد شاء أن تحرر فرنسا من المصائب التى حلت بها ، فإن كانت تلكم هى مشيئة السماء ، فعلام إذن يحمل رجالنا السلاح؟» . وكان جواب الفتاة بسيطاً كالآتى : « بمشيئة الله يحمل الرجال السلاح ، وبنفس المشيئة الربانية يتحقق لفرنسا النصر » ، واقتنع السائل . ثم سألها الأستاذ بيير سجوين : « ماهى اللغة التى كان الملائكة والقديسون يحادثونك بها » ؟ فردت جان دارك عليه « كان الحديث بلغة أرقى من لغتك ! ! واقتنع السائل فى خجل لأن لهجته هى لهجة أهالى الليموزين المعروفة بالخشونة الزائدة[٧] . ثم تنبأت جان دارك لهيئة الأساتذة بعلامات أربع : تخليص أورليانز من الحصار المضروب عليها ، تتويج شارلس السابع ملكاً فى مدينة ريمز ، عودة باريس للفرنسيين ، ثم رجوع دوق أورليانز من سجنه فى برج لندن . وقد تحققت هذه النبوءات جميعاً .

هذا وقد قام المجلس الملكى الفرنسى بتحريات دقيقة عن أصل وحياة وأخلاق جان دارك ، وجاءت النتائج بأن الفتاة أمينة تقية نقية . وازدادت ثقة شارلس السابع بعذراء اللورين ، فعهد إليها بمهمة تخليص مدينة أورليانز من الحصار الإنجليزى المضروب عليها . وأعد الملك للفتاة درعاً خاصاً وزودها بالرجال للقيام بهذه المهمة .

عرجت جان دارك أولا على بلدة تور فنزلت فى دارجان دوپى ، وهناك تعرفت على جان باسكيريل الذى ظل يلازمها حتى وفاتها . وفى بلدة تور اتخذت جان دارك لها علماً مميزاً ، وراحت تعد رجالها للقتال فى سبيل الوطن فألهبت حماسهم بكلماتها وأناشيدها الدينية ، وأشهر تلك الأناشيد أنشودة Veni creator spiritus . وتحرك الموكب من تور إلى بلوا تحت قيادة جان دارك ، فكانت لها حاشية خاصة مكونة من جان دولون ولويس دى كوت وامبلفيل وجاين ورايموند .

وكانت جان دارك حريصة طوال الرحلة على أن تطارد الفتيات العابثات اللائى كن يحمن حول الجند ، فكانت تتعقبهن بعيداً عن المعسكرات شاهرة سيفها . كما حرمت على جنودها الحلفان ونهتهم عن أعمال السلب والنهب . ولم تكن الفتاة العذراء تجد غضاضة فى النوم مع الجند على فراش واحد ، دون أن يتطرق إلى ذهن أحدهم أن يشتهيها ولو بخياله ، فقد كان الكل ينظرون إليها كإحدى القديسات : "jamais ils en avaient volonté charnel".

ويشهد كل الثقات من المعاصرين على ذلك ، ومن بينهم دوق ألانسون ، وسيمون بوكروا ، وجوبرت ثيبوت ، ومارجريت دى تورولد التى كانت من بين حاشية الملكة الفرنسية ، وهى التى قامت بفحص الفتاة عن قرب للتأكد من نقاوتها ، وأكدت « خلوها من أية شائبة روحاً وجسداً » :

"quoi que ce soit de trouble".

كان الهجوم الفرنسى المضاد على الإنجليز لإجبارهم على فك الحصار عن مدينة أورليانز بقيادة عدد من القواد أهمهم كونت دينوا « لقيط أورليانز » وهو أخ غير شقيق لشارلس دوق أورليانز الذى كان سجيناً فى برج لندن ، هذا إلى جانب دوق ألانسون ولاهيير ، ثم جان دارك نفسها التى كانت على قدم المساواة مع هؤلاء القادة الكبار .

أرسلت جان دارك رسالة إلى الجنرالات الإنجليز المحاصرين لمدينة أورليانز ، هذا نصها :

« أيا ملك انجلترا ، أيا دوق بدفورد ، أيها المدعى بميراث مملكة فرنسا ، وأنت يا وليم دى لا پول كونت سافورت (Earl of Suffolk) ، وأنت يا يوحنا سيد تالبوت ، وأنت يا توماس سيد سكيلز .. أنتم يامن تسمون أنفسكم أتباع دوق بدفورد ، هيا أطيعوا نداء ملك السماء : سلموا إلى العذراء المكلفة من قبل

ملك السماء مفاتيح المدائن التى استوليتم عليها من فرنسا . . إنها العذراء (جان دارك) هاهنا بأمر الله لتعلن الوريث الشرعى لفرنسا . إنها على استعداد لإبرام السلام (معكم) ، إن أنتم اعترفتم بها وبصواب قضيتها ، على أن تسلموا لفرنسا وتعوضوها عما قد خسرت (على أيديكم) . وأنتم أيها المقاتلون والرماة أمام مدينة أورليانز ، انصرفوا عن المدينة وعودوا إلى بلادكم ، بأمر الله . وإذا لم تنصاعوا لهذا (الأمر) فإن العذراء ستحمل عليكم سريعاً لتلحق بكم أشد الأذى. يامليك انجلترا ، إن أنت لم تستجب ، فاعلم أننى أنا سيد الحرب ، سألحق برجالك فى فرنسا أينما كانوا ، وسأعمل على طردهم من فرنسا رغبوا أم كرهوا (Veuillent ou ne veuillent) . وإذا لم يطيعوا فإنهم جميعاً هالكون قتلا : إنى هنا مرسلة من قبل الله ، ملك السموات ، لأخرجكم من فرنسا ، واحداً فواحداً . وأما إن هم أطاعوا فسوف تحل بهم رحمتى . ولا يداخلنك شك فى أنك لن تحكم مملكة فرنسا ، فهى حق للملك شارلس الوريث الشرعى ، لأن الله ، ملك السموات ، يأمر بهذا . وقد تجلت للملك هذه الإرادة (الإلهية) عن طريق العذراء (جان دارك) التى سوف تدخل باريس مع رفاق مخلصين . وإذا لم تصدق ما يصلك من خبر موجه من الله والعذراء ، فسوف نعثر عليك فى أى مكان ، وسوف نضرب بكل ما أوتينا من قوة (ضربة) لم يكن لها مثيل فى فرنسا منذ ألف من السنين، ذلك واقع إن لم تصدع لنداء الحق . واعلم يقيناً أن ملك السماء سيرسل قوة أعظم إلى العذراء لا يمكن لأى حشد من رجالك أن يقف أمامها . وعندما يحتدم القتال سوف تشهد بنفسك من الغالبون بالحق المنبلج بأمر رب السماء . وأنت يا دوق بدفورد ، أوجه إليك نداء (خاصاً) بأن تكف عن أعمال الدمار . وإذا استجبت للنداء بالصواب ، فإنه بوسعك أن تلحق بركب العذراء مع الفرنسيين للتعاون جميعاً لإعلاء شأن الدين . ولئن جنحت إلى السلم فابعث لنا بجوابك فى مدينة أورليانز . وإلا فان الوقت سوف يحين عند ما لا ينفع الندم . كتب اليوم الثلاثاء من الجمعة المباركة (٢٢ مارس ١٤٢٩) !

وتطالعنا الرواية الواردة فى « جورنال حصار أورليانز »[٨] أنه فى يوم الأحد الموافق ٢٤ أكتوبر فى وقت العصر كان إيرل سالزبورى وبقية القادة الإنجليز وعلى رأسهم كابتن جلازويل فى موقع لو تورل (Le Tourelles) لمعاينة خطة الإجهاز على مدينة أورليانز . وبينما كانوا يتفرسون فى المدينة من فتحات بروج الموقع إذ بقذيفة مصوبة من برج نوتردام غربى المدينة المحاصرة تحط على إيرل سالزبورى فتصيبه فى وجنته وتقتلع إحدى عينيه . وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من أكتوبر توفى سالزبورى فى مدينة ميونج - سير - لوار التى كان قد نقل إليها إثر إصابته البالغة . وبينما أصيب الإنجليز بخيبة أمل مريرة بسبب مقتل قائدهم ، هلل الفرنسيون فرحا . ثم وصلت للإنجليز تعزيزات جديدة بقيادة تالبوت « أول بارونات انجلترا » ولورد سكيلز ، ومعهم ثلاثمائة من خيرة الفرسان والمؤن والذخيرة والمدافع اللازمة لدك أسوار المدينة المحاصرة ، وأمطروا أورليانز بوابل من قذائفهم الثقيلة ومن الحجارة أيضا . واشتد الحصار عدة شهور ، على أمل أن تفعل المجاعة فعلها فى الأهالى المحاصرين . وبالفعل حل اليأس بقلوب أهالى أورليانز ، فأرسلوا سفارة إلى فيليب الطيب دوق برغنديا يطلبون منه العمل على إنقاذهم من أيدى الإنجليز ، ويروى أن فيليب الطيب طلب من دوق بدفورد أن يترك له أمر أورليانز ، على أن يعمل فيليب من جانبه على تحييد المدينة فى الصراع بين الإنجليز والفرنسيين . ولكن بدفورد رد بقوله : « إنى لم أقطع أشجار الغابة لكى يأتى غيرى ويقتنص العصافير »[٩] . وأمام هذا الرد سحب فيليب الطيب قوته المشاركة فى حصار أورليانز . وشدد الإنجليز من حصارهم ، وبلغ اليأس حده بالمواطنين ، فلم يعد لهم من أمل فى النجاة إلا بمعجزة ربانية .

فى تلك اللحظة اليائسة كانت جان دارك تقابل كونت دينوا القائد الأعلى للجيش الفرنسى ، الذى يحدثنا فيقول :

« وصل جنود الملك ولكننا وجدناهم لا يصلحون لهجوم على معسكرات

الإنجليز واقتحام النهر (اللوار) لدخول المدينة المحاصرة . كذلك كانت الريح وتيار النهر غير مواتية لإدخال المؤن للمحاصرين . ثم جاءت إلى جان دارك وسألتنى « هل أنت لقيط أورليانز » ؟ ، فرددت عليها « نعم ، أنا هو ، وإنى لمسرور بمجيئك » : ثم قالت لى « هل أنت الذى أمرت بأن أتجه إلى هذا المسار من النهر وألا أندفع نحو تالبوت والإنجليز ؟ » . فأجبتها بأنى أنا وقادة آخرين عقلاء ننصح بهذه الخطة حتى نتدبر ما يمكن عمله على طريقة أفضل . فقالت لى جان « باسم أسماء ، أو أليس نصح الرب أحكم من نصحك ونصح الآخرين ؟ . لقد أتيت إليك بعون لم تعرفه من قبل ، إنه عون ملك السماء ، استجاب لتضرعات القديس لويس (التاسع) والقديس شرلمان من أجل مدينة أورليانز . ولن تسمح السماء للعدو أن يقبض على سيد المدينة والمدينة من بعده » .

ويمضى دينوا فى روايته فيقـــول بأنه فى تلك اللحظة تغير مسار الريح المعاكسة للقوارب التى كانت ستحمل المؤن لمدينة أورليانز إلى ريح مواتية تماماً ، فأمرت بالإبحار .. . ومررنا على موقع سان — لوب ، الذى كان فى أيدى الإنجليز ، رغم أنفهم . ومنذ تلك اللحظة اكتملت ثقتى فيها ، وتوسلت إليها أن تعبر نهر اللوار وأن تدخل المدينة حيث كان الجميع يلحون على استقبالها ورؤيتها . ووافقت (جان) على الدخول معى إلى المدينة ، وكانت تحمل فى يدها علمها الخاص الأبيض اللون . وكان معنا القائد لاهير ، ودخلنا رغم كل شىء . لقد كانت إنجازاتها فى المعارك من صنع السماء » .

تعمد القادة الفرنسيون أن تدخل جان دارك مدينة أورليانز فى الخفاء أثناء الليل ، خوفا من حماس الجماهير الزائد . وفى يوم الأحد أول مايو نظموا لها استعراضاً فى شوارع المدينة كى يتمتع بمشاهدتها كل المواطنين ، الذين بلغ بهم الحماس حداً جعلهم يحطمون باب الدار الذى كانت فيه (دار جاك بوشيه) . واكتظت الشوارع بالناس ، وتحرك الموكب فى بطىء شديد من شدة الزحام .

وتجلت عذراء اللورين على ظهر جوادها الأبيض ، ثابتة رشيقة ، فى كامل درعها كأبهى ما يكون الفرسان . وكان يحيط بها من كل جانب نبلاء المدينة وفرسانها ، وهلل الناس كثيراً وعلت صيحات تبشر بنصر قريب .

وبدأت جان دارك الكفاح بالسلاح ، فهجمت برجالها على موقع سان لوب واستولت عليه ، وفى ٦ مايو ١٤٢٩ ظهرت على رأس رجالها فى موقع أوجستان ، وسقط فى يدها أيضاً . ثم كلفت أحد رماة السهام أن يقذف برسالة كتبتها إلى معسكر الإنجليز تدعوهم إلى فك الحصار عن المدينة والعودة إلى بلادهم . ولكن الإنجليز صاحوا بصوت مسموع قائلين « تلكم رسالة من [عاهرة الأرماناك] »[١٠]. ولقد صدمت جان دارك عند سماعها تلك العبارة فبكت بكاء مريراً وسالت دموعها غزيرة ، وهى تحملق فى السماء كى تعينها على تحمل وقاحة الإنجليز .

ثم تقدمت جان دارك هى والقائد لاهير على رأس الفرق الفرنسية ، وخرجوا من مدينة أورليانز وهاجموا الإنجليز فى موقع من الحصار عرف باسم موقع سان جان لى بلان ، واستولوا عليه . وفى يوم السبت ٧ مايو هجم الفرنسيون من جديد بقيادة جان دارك على قنطرة اللوار ، حيث كان يعسكر القائد الإنجليزى كلاسيداس ، واستمر القتال من الصباح حتى المساء . وقد أصيبت جان دارك أثناء تلك المعركة بسهم فوق صدرها ، فتألمت وبكت بمرارة . وحاول البعض مداواة الجرح النازف بحجاب مسحور ولكنها رفضته بشدة ، فضمدوها بزيت الزيتون والمسلى . ورغم جرحها غادرت الفراش فجأة وقصدت إلى مكان منعزل وركعت للصلاة . ثم عادت كأن شيئاً لم يكن ، ممتطية جوادها الأبيض وممسكة علمها المميز بيدها . وظهرت من جديد أمام معسكر الإنجليز ، فذهلوا من هول المفاجأة ، لأنهم قد ظنوا أن السهم قد أرداها . وتشجع الفرنسيون فشددوا هجومهم وقتلوا أربعمائة من الإنجليز فوق قنطرة اللوار الموصلة بين أورليانز وموقع لاتوزيل . وفى كل مراحل المعركة

الفاصلة كانت جان دارك تقود رجالها وعلمها بيدها ، وهى تصيح أبداً : « أى كلاسيداس ، يا كلاسيداس ، هيا استسلم ، استسلم لملك السماء . أو لم تنعتنى بالعار، أأنا تلك ؟ يا لك من مسكين تعس أنت وقومك ». وفى أثناء ذلك الصراع بالسيف والرمح وأيضاً بالكلمة أصيب كلاسيداس وسقط غريقاً جريحاً فى نهر اللوار ، ومعه نفر من فرسانه . وهنا انفجرت جان دارك باكية ، حزناً على موت عدوها كلاسيداس !

ودقت أجراس أورليانز إعلاناً للنصر الحاسم ، وعلت الأناشيد إلى عنان السماء على ألحان الشكر Te deum laudamus . وبعد تلك الهزائم المتكررة اضطر الإنجليز إلى رفع حصارهم عن مدينة أورليانز ، وتقهقروا خاسرين إلى مدينة ميونج — سير — لوار فى ٨ مايو ١٤٢٩ .

وبعد الانتصار أمضت جان دارك ليلة فى دارها على أثر الجرح الذى أصيبت به ، واكتفت لزادها بخبزة مغموسة فى النبيذ والماء .

وقد خلدت الشاعرة كرستين دى بيزان نصر الفرنسيين على الإنجليز فى أورليانز فى الأبيات الآتية :

L'an mil quatre eent vingt et neuf
Reprit à luire le soleil
Il ramène le bon temps neuf
Que l'on n'avait vu du droit ceil
De longtemps, dont plusieurs en deuil
En vécurent : je suis de ceux
Mais plus de rien je ne me deuil
Quand nes vois ce que je veux.

كان لنصر أورليانز أعمق الأثر على نفسية ولى العهد الفرنسى شارلس السابع ، فقد بادر بإصدار مرسوم إلى كل « المدائن الطيبة » فى فرنسا ، يزف إليها فيها الخبر العظيم . وقد ضاعت نسخ المرسوم جميعاً إلا تلك النسخة الموجهة إلى مدينة ناربون .

وهى تجرى كالآتى :

« من الملك إلى (المواطنين) الأعزاء والأحباب . نعتقد أنكم على علم بجهودنا التى بذلناها لنجدة أورليانز التى كانت تعانى من حصار طويل ضربه عليها الإنجليز . العدو القديم لمملكتنا . ولعلكم أيضاً على علم بنشاطنا فى مختلف الأوقات ، وإنا نأمل من الله أن يمد رحمته (لنا) فى النهاية ، ولن يسمح لهذه المدينة المرموقة وأهلها المخلصين بأن تقع فى أيدى الأعداء المذكورين . ونحن نعلم أن فرحكم وسلواكم ، كرعايا مخلصين ، سوف يزداد عندما ننبئكم بأخبار سارة : فاعلموا إذن أنه بفضل الله ، الذى منه كل شىء خير ، قد تحقق لنا إمداد مدينة أورليانز بالمؤن والذخيرة مرتين ، دون أن يتمكن العدو من مقاومتنا . ومنذ ذلك الوقت ، وبالتحديد يوم الأربعاء الماضى ، تمكن رجالنا الذين حملوا المؤن ، بمعاونة أهل المدينة ، من مهاجمة إحدى مواقع العدو فى سانت لوب ، وبعون الله وتأييده ، نجحوا فى الاستيلاء على الموقع ، بعد قتال دام خمس ساعات . ولقد قتل كل الإنجليز الذين كانوا فى الموقع ، بينما لم يقتل من رجالنا سوى اثنان . ورغم أن الإنجليز الذين كانوا فى المواقع الأخرى قد هجموا لمقاتلة رجالنا ، إلا أنهم قد ردوا على أعقابهم دون قتال ...

وفى أثناء كتابة هذه الرسائل إليكم وصلتنا أنباء فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل : بأنه فى يوم الجمعة المنصرم نجح رجالنا فى عبور النهر (اللوار) فى قواربهم نحو مدينة أورليانز المحاصرة من ناحيـة سولونى ، ثم حاصروا الموقع الكائن فى نهاية القنطرة . وفى نفس اليوم استولوا على موقع أوجستان . وفى يوم السبت عاود رجالنا الهجوم على ذات الموقع الذى كان يشرف على القنطرة حيث كان يرابط على الأقل ستمائة من الإنجليز تحت علم شاندوز . وأخيراً ، بالجهد العظيم والمهـارة فى حمل السلاح ، وقبل كل شىء بتأييد من الله ، كسب رجالنا ذلك الموقع وقتـــلوا من كان فيه من الإنجليز أو تم أسرهم . من أجل كل هـذا وجب علينا الشكر لله خالقنا الذى شاءت رحمته

بألا تنسانا . ولا توجد عبارات تفى بغرض تمجيد الأعمال التى أنبأنا بها المرسل الذى وصلنا من الموقع السابق . ولا يوجد ما يفى (لوصف) تلك الأعمال العظيمة التى بذلتها العذراء (جان دارك) بشخصها من أجل إنجاز كل ذلك (النجاح) .

ولم نكد نفرغ من كتابة هذه الرسائل حتى وصل إلينا شخصان أكدا لنا (صحة) الأخبار التى حملها إلينا المرسل ، وفى تفصيل أزيد . كما حملا إلينا رسائل من سير دى جوكورت لتأكيد كلامهما . وبعد هذا قام رجالنا يوم السبت الفائت بالاستيلاء على الموقع المشرف على مؤخرة القنطرة ودمروه . وفى اليوم التالى وقت الفجر هرب الإنجليز من مواقعهم وتركوا ذخائرهم ومدافعهم وقذائفهم ومتاعهم ومؤنهم .

كتب فى شينون ، فى اليوم العاشر من مايو ، بتوقيع شارلس ! ! »

كان لنصر أورليانز الأثر كل الأثر فى ثبات مركز شارلس السابع وارتفاع قدره فى كل أرجاء فرنسا : فقد سارع النبلاء الذين كانوا قد شقوا عصا الطاعة إلى الخضوع له ، ومن بين هؤلاء دوق بريتانى الذى بادر بإرسال سفيره للتهنئة فى بلاط شارلس السابع .

طبقت شهرة جان دارك الآفاق بعد هذا الحدث الكبير . ولعله من الممتع حقاً أن نعلم أن الناس باتوا يرون فى عذراء اللورين معجزة كبرى ، وراحوا يستشيرونها فى شتى الأمور الخاص منها والعام :

من قبيل ذلك أن كتب إليها مفوضو المحليات (Capitouls) فى مدينة تولوز يستشيرونها عما يمكن عمله لإصلاح التدهور الاقتصادى الذى أصاب العملة . كذلك كتبت إليها دوقة ميلان بونى دى فسكونتى تطلب منها العمل « بمعجزاتها الخارقة » على إرجاعها إلى عرشها الضائع . وأيضاً كتب إليها دوق أرماناك يستفتيها فى أن تحكم « بإلهاماتها » أياً من البابوات الثلاثة المتناطحين أصلح للعرش البابوى !

ولنا أن نتصور إذن أثر شخصية جان دارك على نفوس الجند والضباط فى معسكرات الانجليز والبرغنديين : لقد باتوا يخشونها أشد الخشية ورأوا فيها « ساحرة » تصنع المعجزات .

ولذا فإن السلطات الانجليزية وجدت نفسها مضطرة إلى أن تصدر فى ٣ مايو و ١٢ ديسمبر ١٤٣٠ بيانات تحذر الجنود من تصديق ما يقال عن « معجزات » جان دارك ، وجاء فى هذه البيانات انها مجرد « ساحرة مشعوذة » تافهة الأثر .

ونلمس مشاعر الوصى على العرش الإنجليزى ، يوحنا دوق بدفورد نفسه من واقع رسالة بعث بها سنة ١٤٣٤ إلى ابن أخيه هنرى السادس ملك إنجلترا ، يلخص فيها الموقف على الوجه الآتى :

" And alle thing there prospered for you, til thety me of the siege of Orléans taken in hand, God kuoweth by what advis. At the whiche tyme, after the adventure fallen to the persone of my cousin of Salysbury, a greet strook upon your people that was assembled there in grete nombre, caused in greet partie, as y trowe, of lakke of sadde beleve and of unlevefulle doubte that thei hadde of a disciple and lyme of the Feende called the Pucelle that used fals enchauntements and sorcerie. The which strooke and discomfiture nought oonly leased in grete partie the nombre of youre people, there, but as well withdrowe the courage of the remnant in merveillous wyse, and couraiged youre adverse partie and ennemys to assemble hem forthwith in grete nombre"

بعد هذا قصدت جان دارك مع « لقيط أورليانز » وبعض قادة الجيش إلى قلعة لوش لتطلب من شارلس السابع أن يمدها بتعزيزات للاستيلاء على بقية المدن الواقعة على نهر اللوار ، والتى كانت فى حوزة الانجليز ، وهى ميونج سير - لوار ، بوجانسى ، وجارجو . وكانت العذراء تهدف من وراء ذلك إلى إلى تطهير الطريق المؤدى إلى مدينة ريمز ، حيث قررت أن تتوج شارلس

ملكا على فرنسا . ووافق شارلس على خطة جان دارك وعين دوق ألانسون لخوض معارك اللوار ضد الانجليز ، الذين جمعوا قواتهم تحت قيادة سفولك وفولستاف عند بلدة جارجو . ودارت معركة حاسمة عند باتاى بين الطرفين ، وانتصر الفرنسيون انتصاراً حاسماً على الانجليز ، الذين فقدوا ألفين من رجالهم وفر قائدهم فولستاف من الميدان ، بينما لم يخسر الفرنسيون إلا عدداً قليلا من القتلى .

وعادت جان دارك إلى مليكها منتصرة لتكمل معه المسيرة إلى ريمز . وتحرك الموكب إلى بلدة تروى التى فتحت أبوابها لشارلس السابع . وتروى (Troyes) هى نفس المدينة التى كانت قد شهدت منذ تسع سنوات توقيع إتفاقية الإذلال للمشاعر الفرنسية . ومن تروى اتجه الموكب إلى مدينة ريمز ، وهرع الناس من كل فج فى فرنسا لمشاهدة الحدث الكبير ، ألا وهو تتويج شارلس السابع فى مدينة ريمز فى حضور العذراء جان دارك . وخرج أهالى ريمز لاستقبال شارلس وسلمه أعيان المدينة مفاتيحها ورحبوا به وبالعذراء .

وتم تتويج شارلس السابع ملكا على فرنسا فى مدينة ريمز العريقة ومسح بالزيت المقدس . وفى حفل التتويج المهيب ارتفعت أعلام القادة أبطال معارك فرنسا ، وكان أعلاها جميعاً علم عذراء اللورين ، فهو العلم « الذى تحمل العذاب كله ، فكان له أن يكرم بأكبر قسط من الرفعة والشرف » ، على حد تعبير جان دارك نفسها :

"il avait été à la peine, c'etait bien raison qu' il fût à l'honneur"(١١)

ولما أن علت الألحان لشكر السماء على النعمة التى منت بها على شارلس السابع « الملك الممسوح بالزيت » ، ركعت جان دارك عند قدمى حامل التاج وقبلته حول قدميه ، والدمع ينهمر مدراراً على وجنتيها وهى تتمتم « أيها الملك

النبيل، إن مشيئة الله قد تمت ». وكان من بين الذين شرفوا بحضور هذا الحفل المهيب والد جان دارك ووالدتها . وقد كرم الملك عذراء اللورين بأن أنعم على أسرتها بلقب « النبالة » ، كما أعفى قريتي دومريمي وجرى من دفع الضرائب (١٢)

كانت جان دارك قد وجهت رسالة إلى فيليب الطيب دوق برغنديا ، يوم تتويج شارلس السابع ، تدعوه فيها إلى إبرام الصلح مع الملك الفرنسي ، وأنذرته بأنه لافائدة ترجى من حشد رجاله ضد جيش الملك « لأن النصر حليف فرنسا » . غير أن دوق برغنديا لجأ إلى أسلوب الخداع ، فعرض على الملك الفرنسي هدنة مداها أسبوعان ، بينما كان فى الخفاء يتعاون مع دوق بدفورد لجلب تعزيزات من إنجلترا لغسل عار موقعة باتاى . وبالفعل وصلت فرقة إنجليزية إلى ميناء كاليه ، وكان قوامها ٣٥٠٠ من الفرسان الذين تم تجنيدهم بنفس الأموال التى جمعت لتمويل حملة صليبية ضد أتباع جون هس فى بوهيميا ، الذين دمغتهم الكنيسة الرومانية بالهرطقة . ودخل الجيش الانجليزى باريس لتعزيز قوات الاحتلال الانجليزية المرابطة فيها . وسارع دوق برغنديا فى تأييد الانجليز ضد شارلس السابع .

ويرجع موقف فيليب الطيب العدائى تجاه شارلس السابع إلى الصراع القديم بين الأسرتين ، فالمعروف أنه بعد واقعة أجينكورت دبر يوحنا « الذى لا يعرف الخوف » دوق برغنديا مؤامرة تم فيها اغتيال لويس دوق أورليانز سنة ١٤١٧ . وفى سنة ١٤١٨ دخل يوحنا باريس ، ففرمنها ولى العرش شارلس السابع بصعوبة بالغة . وفى ١٠ سبتمبر ١٤١٩ التقى شارلس السابع ويوحنا على قنطرة مونترو للتفاوض ، ولكن المحادثات باءت بالفشل وغلت المشاعر ، فاستل أحد رجال شارلس سيفه وطعن به الدوق البرغندى فقتله . ومن هنا كان موقف فيليب الطيب ، ابن ووريث يوحنا ، تجاه شارلس السابع موقف صاحب ثأر ، فسارع للانضمام إلى معسكر الإنجليز لينتقم من قاتل أبيه . وقد كان فيليب شخصية قوية ،

واتسع نفوذ برغنديا فى عهده حتى صار يعرف بلقب « دوق الغرب الأعظم » ، وكان يسيطر على الأراضى الممتدة من جبال الألب حتى بحر الشمال متمثلة فى فرانش — كومتى ، فلاندرز ، آرتوا ، أردين ، بلجيكا وهولندة (الحالية) ، برابانت ، لمبورج ، هينولت ، زيلاند وفريزيا .

وأمام نفوذ الدوق البرغندى المتزايد ، بدأت أصوات فى بلاط شارلس السابع تلح عليه فى إيجاد سبيل للتفاوض مع الدوق القوى . وكان أشد المتحمسين للتفاوض مع الدوق البرغندى كل من رينولد دى شارتر كبير أساقفة ريمز ، ولا ترموى . ولكن جان دارك حذرت شارلس من مغبة الوقوع فى شرك المفاوضات مع فيليب المخادع ، وأصرت على مواصلة القتال ضد برغنديا . ولكن رأى كبير الأساقفة ولا ترموى غلب على الملك الفرنسى ، فوقع هدنة مع برغنديا .

فى أثناء ذلك كان دوق بدفورد قد عزز قواته فى باريس وراح يشن حملة إعلامية ضد جان دارك ، لأنه إن تحطمت سمعة عذراء اللورين انهارت معها كل مكاسب شارلس السابع ، وأهمها شرعية نسبه الملكى . ولذا فقد وجه دوق بدفورد رسالة إلى شارلس السابع من بلدة مونترو مؤداها أن شارلس قد استعان بفتاة « متهوسة مشعوذة » ليخدع البسطاء من الناس ، وللتطاول على حقوق هنرى السادس فى تاريخ فرنسا :

“ you who cause to be abused the ignorant people and take to yourself the aid of people superstitious and reproved, as that of a woman disordered and defamed being in man’s clothes and of dissolute conduct .. ”

ورغم هذا فقد قرر شارلس السابع الدخول فى مفاوضات مع الإنجليز ودوق برغنديا ، والتقى الطرفان فى بلدة مونتبلوى ، ولكن المباحثات باءت

بالفشل . وهنا غلبت على بلاط باريس نصيحة فريق الحرب (Ceux de l'exploit des Champs) وعلى رأسهم جان دارك ودينوا ولاهير وألانسون ، وقرروا الزحف على باريس لتحريرها من أيدى العدو الإنجليزى والبرغندى .

ويبدو أن العلاقات بين جان دارك وشارلس السابع قد بدأت تفتر منذ ذلك التاريخ . وفى أثناء الهجوم على باريس أصيبت جان دارك بجرح بالغ فى صدرها ، فنقلت إلى معسكر فى لاشابل . ولكنها سرعان ما أفاقت من جرحها وطلبت جوادها وسيفها وعلمها ، وركضت إلى معسكر رجالها لتشجعهم على مواصلة الكفاح ، وكان دوق الأنسون الوفى يؤازرها فى كل خطواتها . غير أن شارلس السابع غضب من سلوك جان دارك وأمر باستحضارها إلى مقره فى سان دينيس . وكان شارلس قد وقع هدنة مع البرغنديين من جديد ، وراح يعامل جان دارك فى خشونة وفتور واضحين ، ثم أمر بالفصل بينها وبين صديقها الحميم دوق الأنسون ، كما أنه سرح نفراً من رجالها المخلصين .

ورحلت جان دارك منكسرة الخاطر إلى مدينة بورج فى صحبة مارجريت دى تورولد ، وأقامت بعض الوقت فى مونت فا كون - ان - برى ، وهناك التقت بفتاة تدعى كاترين دى لاروشيل ، التى كانت تدعى أنها هى أيضاً تسمع « أصواتاً سماوية » !

ورغم موقف شارلس السابع أصرت جان دارك على مواصلة القتال ضد الإنجليز والبرغنديين ، فزحفت على رأس رجالها لمهاجمة بلدتى سان - بيير - لى - موتييه ، ولاشارتيه - سير - لوار . وكان طبيعياً أن تعانى جان دارك مرارة الفشل أمام هاتين البلدتين ، لأن شارلس رفض أن يرسل إليها أية تعزيزات .

وبينما كان شارلس السابع يتخبط فى سياسته تجاه برغنديا ، كان الدوق البرغندى ، فيليب ، يحقق الإنتصار تلو الآخر ، وفى ٨ يناير ١٤٣٠ تزوج من الأميرة البرتغالية إيزابيـــل . وفى تلك المناسبة أنشأ الدوق البرغندى نظام الفروسية الشهير بجماعة «الفروة الذهبية» ، وهو نظام شبيه بذلك النظام المرموق الذى أنشأه الملك آرثر حول « مائدته المستديرة » ، وكان « الأقران » من الفرسان الذين تجمعوا حول فيليب يميزون أنفسهم عن سائر الفرسان بالزهرة البرغندية .

ولما أنعم دوق بدفورد على الدوق البرغندى بمدن عدة فى شامبانى وبرى ، تشجع الأخير وقرر الزحف للإستيلاء على مدينة كومبين . وأسقط فى يد شارلس السابع الذى أدرك الآن أنه قد خدع .

تحركت جان دارك ، دون أن تستأذن شارلس السابع « المتردد » ، ومعها جان دولون والقائد البيدمونتى بارتلميو باريتا وشقيقها بيار .

وكانت جان دارك متحرقة لنجدة أهالى كومبين من الوقوع فى مخالب الدوق البرغندى ، خاصة بعد أن أتتها الأنباء بأن مواطنى البلدة على إستعداد للتضحية « بأرواحهم وزوجاتهم وأولادهم من أجل الوطن » .

وفى نفس الوقت أرسل الإنجليز تعزيزات إلى دوق برغنديا ، ثم وصل الملك هـــنرى السادس نفسه إلى نورمانديا ليتوج ملـكا على فرنسا أيضاً . وتحرك فيليب البرغندى وضرب حصاراً حول بلدة شوازى ـ أوه ـ باك واستولى عليها ، ثم تقدم وضرب حصاراً حول مدينة كومبين ، يحالفه فى ذلك الحصار يوحنا من لـكسمبرج وبورودى نوى ! .

أسرعت جان دارك بقوتها الصغيرة لنجدة أهالى كومبين ، ونجحت فى التسلل ليلا إلى قلب المدينة المحاصرة لرفع معنويات المواطنين .

ثم قادت جان دارك مجموعة من الفرسان وعبرت قنطرة المدينة لمهاجمة معسكر يوحنا من لكسمبورج ، ولكن الهجوم لم ينجح فتقهقرت نحو داخل المدينة. وأثناء تراجع جان دارك جذبها أحد جنود العدو من على صهوة جوادها فسقطت على الأرض ، فتقدم فارس اسمه « لقيط فاندوم » وألقى القبض عليها، ثم سلمها هي وبعض رفاقها الأسرى إلى مارجنى . وأخيراً وقعت عذراء اللورين فى أيدى فيليب دوق برغنديا ، الذى اغتبط بهذا الصيد الثمين . وسارع الدوق فى إعلان وقوع جان دارك فى الأسر ليحطم من معنويات الفرنسيين وسيدهم شارلس السابع .

ألقيت جان دارك أول الأمر فى سجن قلعة بوليو - أن - فرماندوا ثم نقلت بعد ذلك إلى قلعة بورفوار فى قلب الغابات بين كامبرى وسانت كونتين. وقد تمكنت جان دارك من خداع حراسها فى قلعة بورفوار وأغلقت عليهم إحدى الحجرات ثم ألقت بنفسها من ارتفاع يربو على الستين قدما . وقد جرحت جروحاً قاسية ثم أعيدت إلى سجنها مرة أخرى . وتبرر جان دارك هذا العمل المتهور بأنها قد علمت أن البرغنديين سوف يسلمونها للإنجليز ، ففضلت إلقاء نفسها إلى الموت على الوقوع فى أيدى « من لا يرحم » . وقد ترك لنا هيموند ده ماسى الذى كان مكلفاً بحراسة جان دارك الاعتراف التالى : « رأيت جان للمرة الأولى عندما كانت سجينة فى قلعة بورفوار . وقد قابلتها عدة مرات فى سجنها ، وحادثتها مرات عدة أيضاً . وقد حاولت عدة مرات أن أداعبها بأن ألمس صدرها مداعبة شيطانية ، ولكن جان صدتنى فى عنف شديد . لقد كانت جان متينة الخلق بحق ، كلاماً وفعلا (honnête tenue) » .

ظلت جان دارك حبيسة فى برج بورفوار حتى نهاية نوفمبر ١٤٣٠ ، عندما ألح الإنجليز على تسليمها إليهم . وعهد الإنجليز إلى أسقف بوفيه المدعو بيير كوشون ، وهو عدو لدود لشارلس السابع وجان دارك ، للإعداد لمحاكمة جان دارك أمام

محكمة التفتيش الكنسية بتهمة الهرطقة والسحر . وكان الإنجليز غاية فى المكر فى هذا الإجراء ، فقد تظاهروا بأنهم قد نفضوا أيديهم عن قضية جان دارك بأن سلموها للسلطات الكنسية من الفرنسيين . وقد دفع كوشون عشرة آلاف من الفرنكات للذين ألقوا القبض على جان دارك . وطارت الأنباء فى كل مكان أن عذراء اللورين « تساق كالشاة إلى جزارها » ، ورغم هذا لم يتحرك شارلس السابع لتخليص الفتاة من أيدى الجلادين من رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش ، وقيل وقتها أن شارلس السابع « قد امتص الثمرة حتى جفت عصارتها فألقى بما تبقى منها بعيداً » .

واقتيدت جان دارك من قلعة بورفوار إلى مدينة روين عاصمة نورمانديا لمحاكمتها . ومع أن كوشون وزمرته من أساتذة باريس ، المتواطئين مع برغنديا والإنجليز ، كانوا يودون لو أن تتم المحاكمة فى باريس ، ولكن ذلك كان ينطوى على مخاطرة كبرى ، لأن باريس كانت على مقربة من الأراضى التى حررتها جان دارك من أيدى العدو لصالح شارلس السابع . أما بلدة روين فكانت تمثل مكاناً آمناً تماماً ، لأن نورمانديا جميعها كانت إقطاعاً إنجليزياً منذ قرنين كاملين . كما أن ملك انجلترا هنرى السادس كان وقتها مقيماً فى روين ومعه أستاذه ريشارد بوشامب ، ايرل واروك .

كان طريق الآلام (Via Doloris) الذى مرت به عذراء اللورين ممتداً من بلدة آراس ، حيث تسلمها الإنجليز ، إلى قلعة كروتوى ، ودراجى ، ومنها إلى العاصمة النورماندية روين التى وصلتها فى ٢٣ ديسمبر ١٤٣٠ . وألقى الإنجليز بفريستهم فى حصن بوفرنيل ، بينما كان إرهابيو محاكم التفتيش وأساتذة اللاهوت وأسقف بوفيه يعدون العدة لهدر دم البطلة النقية .

استغرقت محاكمة جان دارك شهوراً خمسة (من ٩ يناير إلى ٣٠ مايو ١٤٣١) ، على ثلاث مراحل . وكانت هيئة المحكمة مؤلفة من بيير كوشون قاضياً ،

وجان لى متر نائباً عن المفتش الكنسى العام لفرنسا، إلى جانب ستين من المحلفين النورمان والإنجليز ومن رجال اللاهوت وأساتذة القانون فى روين، إلى جانب أساتذة جامعة باريس وهم جان بوبير ، نيقولا ميدى، جاك دى تورين ،جيرارد فوبيه ، بير ماريس ، توماس دى كورسيل ، إلى جانب هنرى بوفورت كردينال ونشستر من عمومة ملك انجلترا ، ولويس من لكسمبورج أسقف تراوين وهو شقيق يوحنا من لكسمبورج الذى باع جان دارك للإنجليز .

اختار رئيس المحكمة « كوشون » مدعياً عاماً للمحكمة هو جان ده استيفيه الذى أعطاه العصر كنية « بندكت » التى معناها « صاحب اللسان الحلو » ،وذلك سخرية منه بسبب سوقية ألفاظه . كما اختار كوشون السيد جان لافونتين لتوجيه الأسئلة إلى جان دارك أثناء المحاكمة . وبدأت الأسئلة تتطرق إلى كل شىء : حول هيئة وحجم وملبس الملاك ميخائيل الذى ادعت جان دارك أنها قد رأته، وعن أعمار القديستين مارجريت وكاترين . ثم سألها المحقق إذا ما كان القديسون قد أخبروها بأن الله يكره جنس الإنجليز ، وإذا ما كان سيدها شارلس السابع محقاً فى اغتيال دوق برغنديا .

وكان واضحاً منذ البداية أن هيئة المحكمة قد تعمدت السخرية من الفتاة وتسفيه كل آرائها وأحلامها توطئة لإدانتها بتهمة الهرطقة والسحر . كذلك أمرتها المحكمة بأن ترتدى زياً نسائياً بدلا من زى الرجال الذى كانت ترتديه .

وبعد هذا العذاب قرر الأسقف كوشون وهيئة محكمته إرهاب الفتـــاة وإجبارها على توقيع وثيقة تنكر فيها كل أمجادها الماضية ، وذلك بأن تقر لهم بأن كل ماقالته عن الأصوات السماوية والقديسين كان من فعل الشيطان والأرواح النجسة . ولكى يحققوا مرادهم أقاموا فى جبانة سانت أوين مشنقة وأتوا بالفتاة إليها وهددوا بإحراقها ، إن هى لم تعلن جهاراً استنكارها لكل

ما كانت قد نادت به . وقد حضر هذا المشهد الرهيب العديد من وجهاء القوم من علمانيين وكنسيين من برغنديين وانجليز وباريسيين . ووقف وليم إرارد الأستاذ بجامعة باريس يلقى موعظة على جان دارك استهلها بقوله إن الغصن الذى ينفصل عن الكرمة لا ينتج ثماراً ، ومن ثم يقطع ويلقى فى النار . ثم اتهمها بالشعوذة والسحر والهرطقة. بعد هذا تلى عليها النص الذى كان عليها أن توقع عليه : وهو وثيقة تنكر « الأصوات والرؤى » وتوصم الفتاة بالكذب والتجديف وحب سفك الدماء والخطأ فى العقيدة وحب التشبه بالرجال . وتنتهى الوثيقة بإعلان الندم والتوبة على أخطائها جميعاً .

وبعد أن قبلت ارتداء زى النساء ألقى بها فى السجن مرة أخرى . وقد جاء على لسان اثنين من شاهدى العيان هما جان ماسيو ، وبيير كوسكيل أن السلطات تعمدت أن تضع ملابساً خاصة بالرجال فى زنزانة جان دارك ، لإغرائها على الارتداد إلى عادتها القديمة فيمسك بها كوشون وعصابته متلبسة بالعصيان للحكم عليها بالإعدام . ولدينا دلائل جاءت على لسان بيير كوسكيل ومارتن لادفينى بأن أحد الجنود الإنجليز هجم على جان دارك فى زنزانتها بقصد اغتصابها، ولذلك قررت العذراء أن تتسلح بزى الرجال لتتجنب « إثم الإنجليز » . وهناك أيضاً اعترافات أحد الثقات وهو الأب ايزامبارت دى لابيير ، الذى تلقى الاعتراف الأخير من جان دارك قبل أن تساق إلى المحرقة: يقول الرجل إن جان دارك اعترفت له والدمع ينهمر من عينيها أن الجند الإنجليز قد أصابوها بضرر بليغ وهاجموها بعنف بهيم وهى فى زى النساء ، ولذا فقد فكرت أن تحتمى من جرمهم بزى الرجال .

وهكذا فإن أساقفة فرنسا وكهنوت برغنديا وساسة انجلترا قد نصبوا الشباك لفتاة طاهرة لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، وأوقعوا بها فى شراك الأبالسة . وتم كل هذا الجرم باسم محاكم التفتيش الإرهابية وباسم البابوية ،

حفاظاً على ما أسموه « قوامة الإيمان » وعلى العقيدة النقية « التى لا عيب فيها ولا دنس » من إفك الهراطقة . أما جان دارك فهى ، بحق ، بتول اللورين وشهيدة الوطنية ، وهذا يكفيها .

لما علم الأسقف كوشون بأن جان دارك قد عادت إلى ارتداء زى الرجال، قصد هو والمفتش الكنسى وبقية الزمرة إلى زنزانة الفتاة ، ووجودها بطبيعة الحال فى زى الرجال . ولما سألوها عن السبب فى ذلك ، قالت : لأن الحراس المحيطين بها كلهم من جنس الرجال ، ولذا فإن الأليق بها أن تكون فى لباس على شاكلة ألبستهم . وأبدت الفتاة استعدادها لأن ترتدى زى النساء إن قررت المحكمة أن يقوم على حراستها فى سجنها نسوة مثلها . وهنا سألها الأسقف كوشون فى خبث زائد عما إذا كانت « الأصوات السماوية » قد عاودتها من جديد . وأجابت جان دارك بالإيجاب ، وأعلنت أن القديستين مارجريت وكاترين قد وجهتا إليها لوماً لأنها وقعت على الوثيقة المشئومة بنكران « صوت الحق » فى لحظات الضعف والتخاذل !

كانت جان دارك تعرف سلفا مغزى قولها ، وإنما هى التى اختارت خاتمة لحياتها تليق بالأبطال ، لقد اختارت الموت على المذلة والمهانة . لقد ألقت الصبية بقفازها فى وجه الكنيسة والإنجليز جميعاً .

وبعد سماع إجابات جان دارك (Responsio mortifera) ، انعقدت المحكمة من جديد ، وأصدرت قراراً بإحراق الفتاة لأنها ارتدت — هكذا ازعموا — إلى مكر الأبالسة .

فى يوم الأربعاء الموافق ٣٠ مايو لسنة ١٤٣١ قصد الراهب مارتن لادفينى إلى زنزانة جان دارك ، بتكليف من الأسقف كوشون ، ليعلنها بقرار المحكمة ضدها . وبكت الفتاة بكاء مريراً وقالت : « يا للأسى : أبمثل هـــذه القسوة والبشاعة يعاملوننى ، أيريدون للوعاء الطاهر البتول أن يتحول إلى رماد ؟ آه!

لكم أود أن تقطع رأسي مرات سبع على أن يمثل بي . هل هؤلاء رجال كنيسة ويعرفون الله ؟ يا إلهي ؟ إني أتوسل إليك ، أيها الحكم العدل ضد الظلم الذي لحق بي !». ولما ظهر كوشون أمامها صاحت في وجهه : «أيها الأسقف كوشون : إني أشهد السماء عليك ، وبربي أستجير منك» .

وطلبت جان دارك أن لا تحرم من التناول المقدس ، وتناولت على يد الأب مارتن لادفيني ، وسلمت أمرها لصاحب الأمر . واقتيدت عذراء اللورين كحمل أعدوه للذبح إلى ميدان السوق القديم في مدينة روين . وكان يوجه خطاها إلى مصيرها الأب مارتن لادفيني ، ويحيط بهما ثمانمائة من الجند المسلحين بالسيوف والبلط . وقيدوها إلى عمود الخشب والمحرقة ، ثم أشعلت النار لتلتهم جسد الفتاة . ولم تجبن البطلة رغم حداثة سنها ، وإنما تجرعت الكأس حتى نهايتها ، وهي تردد في شجاعة نادرة ، اسم الرب وقديسيه ، وتطلب الغفران لها ولأصحابها وأيضاً لأعـــدائها الذين كتبوا عليها أن تشرب كأس العذاب حتى الثمالة .

يقول الأب إيزامبارت دي لا بيير في شهادته عن تلك اللحظات التي رآها بنفسه :

" Depose celui qui parle que ... toux ceux qui la regardaient en grande multitude pleuraient à chaudes larmes ... même le cardinal d'Angleterre et plusieurs autres Anglais ... "

وجمع الجلادون رماد جسد عذراء اللورين ونثروه في نهر السين ، خوفاً من الأساطير التي كانت تنتظر سيرة جان دارك وقصص ظهورها من جديد . نعم ، لقد كان الإنجليز يخشون جان دارك بعد وفاتها .

نعود الآن قليلا إلى الوراء يوم ٢٤ أكتوبر ١٤٣٠ ، فبينما كانت جان دارك سجينة في بورفوار ، اضطر دوق برغنديا إلى رفع الحصار عن مدينة كومبين ، بسبب التعزيزات الفرنسية التي وصلت لنجدة المدينة بقيادة كونت فندوم ومارشال

دى بوساك . وشهد عام ١٤٣١ نجاحاً آخر للفرنسيين بفضل جهود القائدين لاهير وسيد بربازان فى شمبانيا . أما «لقيط» أورليانز فقد فشلت جهوده أمام بلدة لوفييه واضطر للتسليم للإنجليز . وفى يوليو ١٤٣١ قتل سيد بربازان فى معركة بولنفيل ، ووقع رينيه دانجو أسيراً فى أيدى الإنجليز .

بعد هذا سعى دوق برغنديا إلى إبرام صلح مع شارلس السابع ، ويستدل على ذلك من أنه تعمد عدم الحضور فى حفل تتويج هنرى السادس ملكا على فرنسا فى باريس فى ديسمبر ١٤٣١ . وبالفعل وقع الدوق البرغندى هدنة مع شارلس السابع بعد ذلك بشهر واحد فى بلدة ليل ، مدتها ست سنوات .

أما عن روين ، فقد شهدت مذبحة رهيبة فى نفس المكان الذى أحرقت فيه جان دارك : والذى حدث أن فارساً يدعى ريكارفيل نجح وهو و ١٠٣ من رفاقه فى الاستيلاء على إحدى القلاع ، ولكن الإنجليز نجحوا بعد ذلك فى السيطرة عليهم ، وتم إعدام الـ ١٠٤ جميعاً فى نفس البقعة التى قتلت فيها عذراء اللورين ، فى ميدان السوق القديم فى مدينة روين ، بأمر من القائد الإنجليزى دوق بدفورد .

وبعد انتهاء الهدنة المبرمة مع دوق برغنديا ، أبرم شارلس السابع معه صلحاً وطيداً فى مدينة آراس ، وقد كانت هذه طعنة نجلاء للانجليز .

وجن جنون دوق بدفورد بسبب ذلك الصلح (١٤٣٥) ، وقد مات غضباً فى نفس القلعة التى سجنت فيها جان دارك فى مدينة روين .

وفى ١٣ أبريل ١٤٣٦ نجح فارس فرنسى مغامر اسمه آرثير ريشمونت فى التسلل إلى مدينة باريس . وثار المواطنون ضد العدو الإنجليزى ، فهرب عنها الفرنسيون العملاء أتباع العدو وعلى رأسهم الأسقف كوشون ، جلاد عذراء

اللورين . وطاردته غوغاء المدينة وهم يصيحون « إمسكوا بالثعلب ! عليكم بقطع ذيله » ! ، ويفسر هذا الصياح بأن غالبية الفرنسيين كانوا يعتقدون أن الإنجليز لهم ذيول ! وفى ١٢ نوفمبر ١٤٣٦ دخل شارلس السابع العاصمة باريس ، فى موكب حافل ومعه ابنه وولى عهده لويس .

ثم ابتليت باريس بوباء قاس فى عامى ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، وقد هلك من أهل العاصمة خمسون ألفاً .

وفى سنة ١٤٤١ استأنف شارلس السابع القتال ضد الإنجليز ، وتمكن من استرداد سانت سفير ، وداكس ، ولكنه لم يوفق أمام بلدة لاريول ، فعاد أدراجه إلى منطقة اللوار . ثم تملكته نوبة خمول ودعة ، كانت بطلتها خليلته الذائعة الجمال آجنس سوريل ، وأقيمت المآدب والملاهى ، ففاحت رائحة الفجور على ضفاف اللوار ، ورفع جان جوفينيل ، كبير أساقفة ريمز ، صوته محتجاً يدعو الملك الفرنسى إلى الإفاقة لرشده ، لأن ذلك البذخ الفاسد كان من مال الشعب الذى أعطى ماعنده للحرب والتحرير لا لأرباب الموائد العفنة .

وفى سنة ١٤٤٤ وقع شارلس السابع هدنة مع انجلترا ظلت سارية المفعول حتى ١٤٤٩ . وبعد انتهاء الهدنة قامت ثورة فى نورمانديا ، فهب شارلس السابع لمقاتلة الإنجليز فيها ، ونجح فى الاستيلاء على پونت دى لارش ، كونسن وجرروى . ونجح القائد دينوا فى الاستيلاء على بلدة فرنويل ، وفى ٦ أغسطس ١٤٤٩ ضرب شارلس السابع حصاراً حول مدينة لوفيبه . وثارت كل مدائن نورمانديا ضد الإنجليز ، وكانت روين العاصمة النورماندية أول الثوار ، واضطر حاكمها الإنجليزى سومرست إلى الفرار منها واللجوء إلى بلدة كاين . وفى سنة ١٤٥٠ دخل شارلس السابع العاصمة النورماندية ، وعادت نورماديا إلى التاج الفرنسى بعد ردح طويل من الزمن . وفى سنة ١٤٥٣ حقق شارلس السابع نصره الأكيد على الإنجليز فى بلدة جايين . وانتهى عهد الإنجليز فى غسقونيا

تمـــاماً ، وتطهرت فرنسا من التبعية لانجلترا ، التى لم يبق لهـا فيها إلا ميناء كاليه .

نعم ، لقد تحققت آمال جان دارك فى تحرير الوطن ، وآن الأوان لـكى ينصفها الفرنسيون .

تبنى شارلس السابع قضية جان دارك ، فعهد إلى مستشاره الخاص وليم بو بيه لتقصى القضية من الألف إلى الياء لـكشف الحقيقة . وكانت وثائق القضية محفوظة فى أرشيفات الأسقفية فى مدينة روين ، كما وأن بعض شهود العيـان كانوا لا يزالون هنالك على قيـد الحياة ، واستدعى المستشار كل من شهـدوا المحاكمة لاستجوابهم ، وكان على رأس هؤلاء وليم مانشون الذى قام بتسجيل أعمال جلسات محاكمة جان دارك باللغة الفرنسية ، إلى جانب ترجمـة لاتينية لأقوال جان دارك . ثم استدعى المستشار الراهبين اللذين أخذا بيد جان دارك إلى المحرقة ، وهما ايزامبارت دى لا بيير ، ومارتن لادفينى .

وبينما كان المستشار يقلب فى أوراق وأقوال شهود القضية ، كان سيـده شارلس السابع يحرز الانتصارات الرائعة على الإنجليز فى نورمانديا : فقد دانت له ليزييه ، كوتانس ، وسانت لو ، واضطر الملك هنرى السادس إلى رهن تاج الجواهر الملـكى للحصـــول على قرض يجمع به جيشا وأرسله إلى مدينة شربورج فى ١٥ مايو ١٤٥٠ تحت قيادة توماس كيرل ، الذى كان يخطط للالتحام بجيش سومرست عند بلدة كاين . ولـكن القائد الفرنسى ريشمونت باغت الإنجليز فى ١٥ إبريل ١٤٥٠ وألحق بهم هزيمة نكراء فى موقعة فورمينى ، وبذلك غسل عار أجنكورت . وفى ٢٤ يونيو سقطت كاين ، وتبعتها شربورج فى ١٢ أغسطس ، وهـكذا أصبح كل شمـال فرنسا خاضعاً لتاج شارلس السابع .

فى سنة ١٤٥١ أوفد البابا نيقولا الخامس قاصداً بابويا هو وليم استوتفيل

إلى فرنسا للسعى إلى إقرار السلام بين ملكى فرنسا وانجلترا ، وكان هدف البابا من وراء ذلك أن يجند قوى غرب أوربا للتصدى للأتراك الذين كانوا يهددون القسطنطينية والبلقان . وقد التقى القاصد البابوى مع الملك شارلس السابع فى فبراير ١٤٥٢ فى بلدة تور ، وهنالك عرض الملك على المندوب البابوى قضية جان دارك . وبعدها بشهرين قصد المندوب البابوى إلى بلدة روين لتقصى الحقائق بنفسه . وكانت المشكلة معقدة للغاية : ذلك أن الإنجليز قد تعمدوا فى مكر زائد إلى محاكمة الفتاة أمام محاكم التفتيش الكنسية ثم إحراقها بتهمة الهرطقة والسحر ، حتى لا يقال أنهم قد تخلصوا من جان دارك لأسباب سياسية. واتصل المندوب البابوى فى هذا الشأن بالمفتش الكنسى العام لفرنسا وهو الراهب الدومنيكانى جان برهال ، الذى كان نورماندى الأصل مثل المندوب البابوى . واتفق الإثنان على إعادة النظر فى قضية جان دارك للبحث فى عدة نقاط خطيرة هى : تحيز القضاة الذين حكموا عليها بالإعدام حرقاً للسلطات الإنجليزية ، كراهية الإنجليز الشخصية للفتاة لما كانت تمثله بالنسبة للمشاعر الفرنسية ، الضغوط التى أرهقت بها المحكمة الفتاة ، سجن جان دارك فى سجن علمانى بينما كانت قضيتها تنظر أمام محكمة كنسية ، عدم وجود محام للدفاع عن الفتاة ، وأخيراً هل كانت جان دارك مهرطقة حقاً أم لا ؟

واستدعى للاستجواب من جديد من تبقى على قيد الحياة ممن قاموا بدور فى محاكمة جان دارك ، فجاء كل من مانشون ، لادفينى ، إيزامبارت . بيير ميجيه ، بيير كوسكيل ، نيكولا كافال ، أندريه مورجورى ، ريشارد دى جروشيه ، جان فابرى ، وليم دى ديزرت ، ثم نيكولاس دى هوبفيل . أما بقية الذين كانوا قد شاركوا فى المحاكمة فقد هلكوا جميعاً ، فقد مات الأسقف كوشون ولوازلييه فجاءه سنة ١٤٤٢ ، أما المدعى العام جان ده أستيفيه فقد وجد غارقا فى إحدى بالوعات المجارى ، وأما نيكولاس ميدى الذى ألقى الموعظة الرهيبة على جان دارك قبل إحراقها ، فقد هلك بمرض البرص .

وفى ٢٢ مايو ١٤٥٢ أبلغ المندوب البابوى الملك شارل السابع أن معلوماته عن القضية قد اكتملت . ثم أخرج جان برهال المفتش العام موجزاً (Summarium) يحوى كل الاتهامات الموجهة إلى جان دارك وإجاباتها عليها . ثم عرض الموجز على أساتذة اللاهوت ومشاهير القانونيين لإبداء رأيهم فى القضية . ومن بين هؤلاء ليونارد فون بركستنال من جامعة فينا ، روبرت سيبول عميد جامعة باريس الأسبق ، إيليا دى بوردل أسقف بريجيه ، توماس باسان أسقف ليزيبه ، مارتن بريبه أسقف لامانس ، ثم جان بورشارد أسقف أفرانش .

وعاد المندوب البابوى إلى مدينة روما فى نهاية ١٤٥٢ ، وفى أبريل من العام التالى عين كبيراً لأساقفة بلدة روين . وكان هذا الاختيار ينم على نية البابوية فى إعادة النظر فى قضية جان دارك لإظهار الحق وإعادة الفتاة إلى كرامتها الحقة واستحقاقها التاريخى .

وفى سنة ١٤٥٤ قام المفتش العام جان برهال برحلة إلى روما ليرفع إلى البابوية التماساً من أسرة جان دارك للموافقة على إعادة النظر فى القضية الكبرى . وفى ١١ يونيو ١٤٥٥ أصدر البابا كالكستوس الثالث مرسوماً يخول لايزابيل رومى وولديها جان وبيير حق المطالبة بإعادة النظر فى القضية ، وعين لهذه المهمة ثلاثة من مشاهير رجال الدين هم جان جوفنيل كبير أساقفة ريمز ، وليم شارتيه أسقف باريس ، وريشارد أولفييه أسقف كوتانس .

تقدمت والدة جان دارك هى وإبناها بالتفويض البابوى إلى المسئولين فى نوتردام بباريس ، فى حضور المفتش الكنسى العام جان برهال . وكان منظراً بالغ التأثير ، فقد زحف أهالى أورليانز « أحباء فتاة اللورين » وتجمهروا على نوتردام لمشاهدة ماقد يحدث ، وسمعوا الأم المكلومة إيزابيل وهى تقدم التماسها لإنصاف إبنتها كالآتى :

« كانت لى إبنة أنجبتها وأنا فى مخافة الله . ومنذ نعومة أظفارها أطعمتها من نعمة القربان وغسلتها بماء العماد ، فتربت فى خشية الرب ونعم الكنيسة ، وفقما كان سنها وبساطتها يسمحان بذلك . وعلى هذه الشاكلة نمت وسط الحقول والمراعى ، وكانت دائمة الصلاة حريصة على الاعتراف محبة لنعمة التناول ، رغم شبابها . وكانت تقبل على الصوم وتكثر الدعاء إلى السماء ، بسبب ما كان الشعب يعانيه ، وكان قلبها عطوفاً نقياً للغاية . ومع أنها لم تقدم أبداً على شىء يخالف قواعد الإيمان ، إلا أن بعض الأعداء أوقعوا بها فى محاكمة دينية ، ورغم براءتها ، حاكموها فى غدر وعنف دون وجه حق ، وحكموا عليها بطريقة لعينة مجرمة ، فأعدموها حرقاً بالنار . . فلتلحق اللعنة بأرواحهم القاسية ، لقد تحطمت أنا الأم ولا منجاة لى من ذلك الحزن . . أنا ايزابيل رومى » .

وأعيد فحص القضية ، واستدعى الأمراء والنبلاء والجنرالات وكبار الأساقفة والرعاة والفلاحون والعذارى والأرامل وأرباب السجون وقطاع الطرق ، وكل من كانت له صلة من قريب أو بعيد بالقضية الكبرى للاستئناس برأيه . وانتقلت هيئة المحكمة من بلدة إلى أخرى جرياً وراء الشهود والأحياء من معاصرى جان دارك . وكانت بداية المشهد فى باريس وانتهت فى بلدة روين ذاتها .

وفى نهاية الأمر وقف كبير أساقفة ريمز وأعلن الآتى :

« استجابة لالتماس عائلة آرك ضد أسقف بوفيه وضد المدعى الجنائى الفرنسى وضد مفتش روين ، وعلى ضوء المعلومات التى توفرت لدينا والمشاورات القانونية ، واستناداً إلى ما تأكد لدينا من حقائق ، نعلن نحن من محكمتنا ، وقد وضعنا الله وحده رقيباً علينا ، ونقول وننطق ونقرر ونعلن أن المحاكمة السابقة (ضد جان دارك) وقرارها بالإعدام كان ملوثاً بالتزييف

وبالظلم وبالمغالطة وبالتناقض وبالخطأ الواضح فى جوانب (dolus malus) العدل والحق ، وهذا ينسحب أيضاً على وثائق الاستنكار والإعدام وعلى كل مانجم عنها من نتائج ... ونحن نعلن أنها جميعاً باطلة لاغية لاقيمة لها وتافهة غير ذات أثر وبائدة ... وها نحن نحطمها ونلغيها ونعلن تدميرها .. وبالنظر فى لجوء جان إلى الكرسى البابوى ، وبالنظر فى التهديدات التى وجهت إليها بالتعذيب ، نعلن أن جان دارك فتاة لاغبار عليها ألبتة وبأنها نقية تقية ، ونعلن غسلها من كل مالحق بها من جرم بالكلية » .

وأمسك كبير الأساقفة بنسخة من قرارات الاتهام فى المحاكمة الجائرة وقام بتدميرها . وتحرك موكب الحق والجماهير تبكى فرحاً إلى جبانة سانت أوين حيث أعيدت تلاوة حكم الكرامة لجان دارك . وأعيد المشهد نفسه فى ميدان السوق القديم .

وعم الفرح كل مدائن فرنسا عند ذيوع الأنباء السعيدة .

ليس من المبالغة القول أن جان دارك هى التى فجرت الشعور بالقومية وهى التى بشرت بعصر الإصلاح الدينى ، وعلى دربها يسير المصلحون والشهداء على مر العصور ، وفى مختلف الأوقات .

يقول الكاتب الفرنسى أناتول فرانس حكمه على جان دارك فى الآتى :

"La pensèe lui vint de retablir le dauphin dans son hèritage. Par cete pensèe elle donna sa vie. C'est pour là qu'elle survit à sa cause et que son dévouement demeure un imm rtelexemple. Ce fut le martyre sans lequel les hommes n'ont rien fondè de grand ni d'utile dans le monde Cités empires, repnbliques reposent sur le sacrifice. Ce n'est donc ni sans raison, ni sans justice que Jeanne devint le symbol de la patrie armée"

BIBLIOGRAPHY

— Boissonade, P. " Une étape capitale de la mission de Jeanne d'Arc ", Revue des Questions Historiques, 3me Series, Vol. Xvll, 1930.

— Calmette, J , The Golden Age of Burgundy, London, 1962.

— Champion, P. (ed.), Procés de Condemanation de Jeanne d'Arc, Paris, 1921.

— Commines, de, Memoirs, London. 1900 – 1

— France, A.; Vie de Jeanne d'Arc, Paris 1908.

— Froissart, The Chronicles, (trans. by Lord Berncrs, ed, G. C, Macaulay), London, 1895 .

— Gadart, H. Jeanne d'Arc à Reims, Reims, 1887.

— Hanotaux, G., Jeanne d'Arc, Paris, 1911.

— Herval, Revue des Sociéiés Savantes de Haute Normandie, No. 19, 1960.

— Huzinga, J , The waning of the Middle Ages (Penguin Books).

— Journal du Siége d'Orlêans, (E. Quicherat).

— Journal d'un Bourgeois de Paris, (Ed. A. Mary), 1929.

— Lang, A., The Maid of France, London, 1908.

— Maurais, A., Histoire de France.

— Painter, S., French chivalry (Great Seal Books).

— Pange, J. de, Le Roi trés chrétien, Paris, 1949.

— Perroy, E , The Hundred yeare war, (trans lay D. C. Douglas), London, 1962.

— Prestage, E. (Ed), Chivalry, London, 1928.

— Rambaud, M., Telle fut Jeanne d'Arc, Paris, 1937.

— Samaron, (., " Pour la defense de Jeanne d'Arc", Annuaire - Bulletin de la Societè de l'Histoire de France. vol. LXXXV, 1933 .

— Shakespeare, W., Henry VI.

— Shaw, B., St. Joan, London, Longmans.

— Waldmann, M., Joan of Arc, London, 1935.

— Waley,D., Later Medievel Europe, London, 1968.

الحواشى

(١) Maurrois A-; Histoire de France ; P. 81.

(٢) Shakespeare, W. Henry v 5-2 212—219 :

K. : Is it possible dat I sould love de enemy of France ?

H. : No it is not possible you should love the enemv of France, Kate; but in loving me you should love the friend of France : For I love France so well that I will not part with a village of it; I will have it all mine : and Kate, when France is mine, and I am yaurs, then yours is France and you are mine.

K : I do not know dat (Cont)

H : No, 'tis hereafter to know, but now to promise : do but now promise; Kate you will endeavour for your French part of such a boy; and for my English moiety, take the word of a King and a bachelor. How answer you, la plus belle Katharine du monde, mon trés cher et devin déesse ?"

(٣) Maurrois Op cit., p. 93 ; " forte, un peu brune de teint, de force peu commune, mais de maintien modeste et de voix feminine"

(٤) Perroy, E., The Hunred Years War, pp. 282-285

(٥) See Boissnade, Pierre " Une étape capitale de la mission de Jeanne d'Arc", Revue des Questiots Historiques 3 me Serie, vol XVII (1930) pp. 12-67; Samaron, Charles, " Pour la d'efense de Jeanne d'Arc", Annuaire - Bulletin de la Societé de l'Histoire de France vol LXXXV, (1933), pp 50 — 63

(٦) " Je te dis, de la part de Messire, que tu es vray héritier de France et fils de roy ".

(٧) (En quelle langue parlent vos Voix) ? demande frére Seguin, avec d'accent du Limousin.

(Meilleure que la votre, repliqua-t-elle).

(Croyez vous en Dieu ?

(Mieux que vous).

Journal du Siége d'Orleans, (ed. Quicherat), (٨)
pp. 96 ff.

(I have not beaten the bushes that others might (٩)
take the birds) .

(News of the Armagnac whore). (١٠)

Rambaud, M. Telle fut Jeanne d'Arc, Paris 1957 (١١)
pp. 160 ff.; Gadart, H., Jeanne d'Arc à Reims, Reims 1887; J. de Pange, Le Roi très chrétien, Paris, 1949 .

See Herval Revue des Societês savantes de Haute (١٢)
Normandie, No 19, 1960, pp 10-11